

# عقيدة الخيام

## للاستاذ عبدالحق قاضل

### تقديم

من خلال رباعياته الفارسية عرفناه نحن العرب في هذا الجيل ، لكنه كان في حياته من اعلام الثقافة العربية ، لانه كتب مؤلفاته ورسائله العلمية والفلسفية والدينية باللغة العربية، التي كانت لغة العلم والدين والادب في زمانه ، لا في فارس وحدها بل في غيرها من اقطار الامبراطورية الاسلامية . وقد طبع كتابه الجليل ( الجبر والمقابلة ) بنصه العربي وترجمته الفرنسية في باريس عام ١٨٥١ - اي ان اللغة العربية هي المرجع لدراسة هذا الاثر وغيره من ثمار عقل الخيام . ولولا أن شهرته برباعياته الفارسية قد غطت على شهرته العلمية وثقافته العربية، لعرفناه واحدا من رجال الفكر العربي كالفارابي وابن سينا والخوارزمي والزمخشري وغيرهم من اخوانه واخواننا غير العرب،الذين نشأوا في أحضان الثقافة العربية والحضارة الاسلامية،والذين هجروا لغاتهم الأصلية في التعلم والتعليم،وودونوا ثمار قرائحهم بالعربية التي احبوها وهاموا بها،

الى حد ان ابا الريحان البيروني، مثلا، كان يقول ان الهجـو  
بالعربية احب اليه من المدح بغيرها ! .. وما كان هذا شعوره  
وحده .

لهذا ارى ان الخيام جدير بان يحتمي به العرب في  
المناسبات، ويصدروا الاعداد الخاصة به من المجلات ، شأنهم  
مع أمثاله الآنف ذكرهم .

### عقيدته

كنت في كتابي « ثورة الخيام » عقدت فصلا بعنوان ( الاحـاد  
الرياضي ) برهنت فيه على الحاد عمر الخيام ؛ وهنا اعقد فصلا بعنوان  
( الايمان الرياضي ) ابرهن فيه على ايمانه — دون ان أمس ذلك الفصل  
الاحادي بتصحيح أو تنقيح ، لان عمر الخيام نفسه قد كان كلا الرجلين .

فكيف كان ذلك ؟

البيهقي — جزاه الله خيرا كثيرا عما روى لنا من اخبار الخيام، ولا  
سيما ان لمروياته، على قلتها وايجازها ونقصها، خطورتها في البحث ، لقرب  
عهده من مصادرها ، ولانه يكاد يكون شاهد عيان في بعض ما يعيننا منها  
— يقول عن صاحبنا عمر « وحكى لي خنته الامام محمد البغدادي انه كان  
يتخلل بخلال من ذهب (1) ، وكان يتأمل الالهيات من ( الشفاء ) ، فلما  
وصل الى فصل ( الواحد والكثير ) وضع الخلال بين الورقتين وقال : ادع  
الازكياء حتى اوصي . فوصى ، فقام وصلى . ولم يأكل ولم يشرب ، فلما  
صلى العشاء الأخيرة سجد ؛ وكان يقول في سجوده : اللهم انك تعلمم

---

! — التخلل : تنظيف ما بين الاسنان من بقايا الطعام . والخلال ( زنة الهلال ) : ما يتخلل

به من مود أو نحوه .

اني عرفتك على مبلغ امكاني ، فاغفر لي ، فان معرفتي اياك وسيلتسي  
البك . ومات « . اه البيهقي (٢) .

قال لي الخيامي التركي المرحوم رضا توفيق ( حين لقيته في استانبول  
عام ١٩٤٧ ) انه لا يصدق الحكاية ، لان الخيام كان فقيرا ، وليس معقولا  
ان يتخلل بخلال من ذهب . غير اني لا اتفق معه في هذا ، اولا لأنني لا ارى  
من الضروري تكذيب الحكاية كلها اذا كان جزء منها غير معقول ، وثانيا  
لان الاستنتاج بمثل هذا التعميم لا يبيح لنا انكار نص ينقله راوٍ عرف شخص  
الخيام ( مذ قبله سنة ٥٠٧ هـ - اي قبل وفاة الخيام بعشر سنوات ) فلم  
ينكر من رواية ختنه عنه انه كان يتخلل بخلال من ذهب . وقد كان هو  
اخلق بالشك في صحة ذلك لو قد وجد ما يثير شكاً ، وخاصة انه يروي  
الحكاية نقلا عن شاهد عيان يعرفه ايضا ويثق بروايته ، بدليل انه نقلها  
دون ان يعلق عليها ، او يناقش روايتها ختن الخيام الذي يظهر انه كان  
مساكناله في دار واحدة . وليس ثمة ما يحمل اي واحد من الاثنين -  
الراوي والمروي عنه - على ان يخترع ( خلال الذهب ) خلافا للواقع .  
وليس مستبعدا ان يكون الخيام اغتنى في بعض مراحل عمره، وهو الذي  
كان يخالط الامراء والسلاطين . وقد جاء في بعض اخباره ان الوزير نظام  
الملك كان اجري عليه ( ١٢٠٠ ) دينار في السنة ، وربما اجري عليه وزير  
آخر او سلطان ، ما اغناه ولو في اخريات حياته فقط . كما ان الخيام كان  
طبيبا عالي الدرجة، يستدعيه الملك لمعالجة حفيده سنجر حين اصاب

---

\* - ظهير الدين ابو الحسن علي بن زيد البيهقي ، يرجع نسبه الى الصحابي خزيمه الاوسي  
الملقب بذي الشهادتين ، نزل ابناءؤه نارس - « تنمة صوان الحكمة » تم تأليفه ما بين  
عامي ٥٥٢ و ٥٦٥ هـ . ويلاحظ ان لقب الخلق ( البندادي ) ينبيء ان زوجة الخيام كانت  
مراتبة النسب .

بالجدري في صباه (٣) ، والطب صنعة رائجة رابحة ، وما أحسب بضاعة الخيام هذه كانت بائرة . حتى لو كان فقيرا حقا أيامئذ فليس من المحال أن يكون أحد المعجبين أو الأصدقاء قد أهدى اليه ذلك الخلال الذهب . وليس ببعيد كذلك أن يكون تفسير هذه النقطة أي شيء لا يخطر لنا ببال . فعلى هذا لا أستسيغ تكذيب نص مجرد وجود نقطة فيه لا نعرف كيف نفسرها . وما أكثر الألفاظ المستعصية ، وبعضها شديد الغرابة لا نفقه له معنى ، في حيوات رجال التاريخ .

على أن حكايتنا هذه تقول بنفسها أن الخيام كان عند وفاته ميسور الحال ، لأنه حين شعر بدنو ساعة الصفر المحقومة ، دعا بالأزكياء ليوثقوا وصيته ، فحضروا ووصى فعلا . فلو لم يكن ذا مال ذي بال لما كان ثمة ما يستدعي الوصية ، وتوثيقها من جانب الأزكياء ، وهم بمثابة الكتاب العدول في زماننا .

لكني أنا لم أسلم من مثل هذا الخطأ الذي وقع فيه المرجوم رضا توفيق ؛ فقد صدرت الطبعة الأولى والثانية من « ثورة الخيام » وأنا غير عابء بالحكاية . . صدق كل ما رواه البيهقي عن الخيام ما عداها ، فكنت أخطأها كلما وقع نظري عليها . وكان السبب أنها صادرة عن ختن الخيام — أي أخي زوجته أو أبيها — فقلت لنفسى، إذا كان معاصرنا المرجوم فروغى (٤) يدافع عن صحة إيمان الخيام، المتهم بالأحاد، ذلك الدفاع

٣ — هو أبو الحارث سنجر بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ، تولى الملك ولقب بالسلطان الاعظم .

٤ — محمد علي فروغى نكاه الملك ، كان أحد جهابذة السياسة والعلم والادب في إيران ، تولى في أثناء الحرب العالمية الثانية . أصدر مجموعة لرباعيات الخيام باسم « رباعيات حكيم خيام نيشابوري » وقدم لها ببحث قيم على إيجازه، وعلى مخالفتنا لبعض آرائه فيه . طبعت في طهران سنة ١٣٢١ شمسية ، أي ١٩٤٢ م .

الحر ، غير المنطقي ، ويتأول حتى الرباعيات اللاحادية الواضحة الكفران ، بالرغم من أن أكثر من ثماني مئات من السنين تفصل بين المحامي والمتهم ، وبالرغم من عدم وجود أية رابطة شخصية بينهما من صداقة أو مخالطة — فما بالي بالامام محمد البغدادي، ختن الخيام ؟ كيف اصدق حكايته ضد رواية القفطي الذي قال لنا بكل جلاء عن الخيام إن اهل زمانه قدحوا في دينه . . حتى لخشي على دمه وامسك من عنان لسانه وقلمه ؟ . . وضد اتهام الرازي اياه بأنه من الدهريين والطبيين الضالين، بالرغم من اكباره له ؟ (5)

يضاف الى ذلك ان الرواية نفسها لا تخلو مما يثير الشك أو التساؤل على الأقل . فان ما يقال في السجود اثناء الصلاة هو « سبحان ربي الأعلى » . . فلماذا قال الخيام في سجوده غير ذلك ؟ كما ان ما يقال في السجود انما يقال سرًا، اي همسا لا جهرا ، فكيف سمعه الختن ؟ وان شئت مشككا آخر علاوة على هذا، فكيف علم ان الخيام وقف في القراءة عند ( فصل الواحد والكثير ) من كتاب ( الشفاء ) وهو من اشهر كتب ابن سينا ؟

من اجل هذا أهملت هذه الحكاية من رواية البيهقي التي صدقتها كلها، لاني لم اجد فيها — عدا هذه الحكاية — ما يدعو الى شك او تكذيب . وكان ذلك تسرعاً مني .

بعد الطبعة الثانية من « ثورة الخيام » عدت الى القصة انظرها بعين جديدة ، ازلت قبل كل شيء ذلك التناقض بين روايتي القفطي والرازي وغيرهما عن الحاد الخيام، وبين رواية ختنه عن ايمانه ؛ فظهر لي أن عمر الخيام نفسه قد كان كلا الرجلين ؛ ذلك أن الاحاد والايمان لم يلتقيا في فترة واحدة من حياته . فنحن وان كنا على جهل تام بمرحلة الحاد، فاننا نعلم أن

---

• — ورد تفصيل ذلك في « ثورة الخيام » .

ايمانه كان في شيخوخته، وقد اطلعنا عليه في آخر يوم من حياته بالتحديد .  
وما اكثر من ألحد من العلماء والمفكرين في عهد الشباب أو الكهولة ثم فاء  
الى الايمان في الشيخوخة .

وعلى ضوء هذه الظاهرة نعود الى النقاط الغامضة التي اثارته  
شكوكنا لنتحنتها ونحقق النظر فيها . فاما كيف عرف الامام محمد البغدادي  
ان صهره الخيام وقف من ( الشفاء ) عند ( فصل الواحد والكثير ) فهذه  
ابسط المشاكل واسهلها جوابا . عندما فتح الكتاب — ربما بعد ان اسلم  
الخيام الروح — حيث كان قد وضع الخلال بين الورقتين — وجد هذا  
العنوان في احدى الصفحتين .

واما ما قاله الخيام في سجوده، فالظاهر انه كان خارج صلاة العشاء  
الاخيرة — الاصلوية — التي يقال في سجودها « سبحان ربي الاعلى » .  
واكبر ظني ان البيهقي لم يحسن اختيار اللفظ للتعبير عن هذه النقطة ، ولو  
ان عبارته تحتل تفسيرنا هذا . فهو يقول : « فلما صلى العشاء الاخيرة  
سجد .. » اي : فلما فرغ من صلاة العشاء الاخيرة سجد . ولا معنى  
لعبارته بغير هذا التفسير، لان السجودات في اثناء الصلاة بديهية لا حاجة  
الى ذكرها . ولو كان قصده السجود الذي في اثنائها لقال : « فلما صلى  
العشاء الاخيرة وسجد كان يقول في سجوده .. » او : « فلما سجد في صلاة  
العشاء الاخيرة .. » . اما خارج الصلاة فما اكثر ما يسجد المسلم لله  
شكرا او تضرعا ، او تحية للمسجد ، او استقبالا للاجل .

فلما احس الخيام بدنو ساعته وصّى ، وكان متهيئا نفسيا للقضاء  
الرفيق الاعلى، فسجد بعد صلاة العشاء تضرعا وانابة . وفي مثل هذه  
الحالة من المعقول ان يكون قد جهر بما قاله، ورفع به صوته من فرط التأثر  
وحرارة الابتهاال . كما يحتمل ان يكون كرر الدعاء بعد السجود فسمعه

خفته . واية كانت الحالة فقد وردت احاديث نبوية عن اجلة من الصحابة ان الرسول كان يدعو احيانا في سجوده ويقول كذا وكذا ، من مختلف الادعية(٦) ويظهر ان البيهقي قد دُون نص دعاء الخيام حين سمعه من الختن ليثبته في كتابه ، كما يفعل امثاله ممن يؤلفون عن المشهورين او يجمعون الاقوال والنصوص .

اما الاحساس بدنوّ الاجل فظاهرة كثير حدوثها ؛ ولعل القارئ قد صادف من معارفه او اقاربه — كما صادفت انا — من احسوا بقرب تسليم الروح، ولو لم تعتورهم اثناء المرض نوبة او انتكاسة فجائية منذرة ، سوى الهاجس الداخلي .

من الملحوظ ان بعض الرواة — ومنهم رواة الخيام — ميالون الى الاختزال احيانا، فيحذفون كلمات او عبارات يظنونها زائدة او غير ذات جدوى ، غير مقدرين ما لها عند الباحث المحلل المدقق من خطورة ؛ وهي قد تغير المعنى او قلبه ، او تضعف الرواية على الاقل . من ذلك مثلا رواية الشهرزوري لهذه الحكاية نفسها : فبدلا من ان يقول « روى البيهقي ان ختن الخيام الامام محمد البغدادي حكى له كذا وكذا .. » — قال الشهرزوري عن الخيام : « وحكى ( بصيغة الجهول ) انه كان يتخذ بخلال من ذهب، وكان يتأمل الالهيات من الشفاء .. » ( ٧ ) .. فليتصور القارئ كم كانت تهبط قيمة الحكاية لو لم تصل الينا رواية البيهقي الاصلية، التي منها علمنا ان الراوي ناقل مباشر ، ثقة ، عن شاهد عيان . شيء من هذا

٦ — ابن تيمية : « الكلم الطيب » — تحقيق محمد ناصر الدين الابتي — نيه امظة من ادمية

السجود النبوية ، ص ٦١ و٦٠ .

٧ — شمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري — « نزهة الارواح وروضة الانراح » — نايف

٥٨٦ — ٦١١ هـ .

القبيل اقوله عن السيهتي نفسه ، فلا بد أن ختن الخيام قد روى له أمورا  
أكثر اقناعا وأوفى تفاصيل مما اختصره لنا في نصه هذا الذي لم يجد هو فيه  
ما يثير تساؤلا أو يتطلب اقناعا أو إيضاحا — لأن الحكاية كما سمعها كانت  
مقنعة واضحة . ولعله كان شخصا يعلم عن تدين الخيام وتقواه ما لم  
يذكره لنا اكتفاء بزواية الامام محمد البغدادي .

ما سبب الحاد الخيام ؟

انه السبب الرائج للحاد بخطوطه المريضة في كل مكان ، ولا سيما  
لدى العلماء والمفكرين .

لماذا كل هذا الجور في الحياة ؟

لماذا يسعد الاشرار ويثرون ، بينما يشقى الأحرار ويفتقرون ؟

لماذا يخلق الانسان لينمو ، ثم يموت بعد أن يتم ويكتمل ويصبح أجدر  
بالحياة ؟

لماذا تموت الصبيّة كالوردة في ميعه عمرها قبل أن يأتي دورها ؟

لماذا كل هذا الاضطراب والظلم ، واللامعقول ، في العالم ؟

لماذا .. لماذا .. لماذا ... ( وقد ادرجنا نماذج أخرى من تساؤلاته

و ( لماداته ) في فصل ( الاحاد الرياضي ) في « ثورة الخيام » ..

فالذي يستطيع أن يستنتجه بعضهم من كل هذا انه لو كان للكون

اله لما كان جائرا ، وان كان جائرا فلا يمكن أن يكون الها .

ولا بد أن الخيام كان عارفا بالقالة السنسطنائية الاغريقية المشهورة:

رأما لن الله لا يريد الشر ولا يستطيع أن يمنعه ، وأما انه يستطيع ولا يريد ،

وأما انه يريد ولا يستطيع .. وكل أولئك يعني انه ليس الها . والرابعة

انه لا يريد الشر ويستطيع ان يمنعه ، وهذا أيضا مستحيل ، لانه يقال  
عندئذ : ماله لا يفعل اذن ؟

يضاف الى ما تقدم من افكار تقود الى الجحود والكفران بذات الله ،  
ان الالحاد ضرب من التمرد الذي يتسم به عهد الفتوة التي من طبعها التحدي  
والنزوع الى التجديد، والخروج على الموروث من معتقدات ومواضع دينية  
 واجتماعية وذوقية .. حتى في الازياء .. حتى في الموسيقى والاغاني .. وقد  
راينا باعيننا انتشار بدعة اطالة اللحية على عهدنا عند أحداث الجيل ، خلافا  
لجيل آبائهم ، ثم اطالة شعر الرأس محاكاة للناث . ولا تسلم عن تلمص  
الفن عموما — من رسم عبثي وأدب تشكيلي — من كل القيود، وخاصة من  
القيد الجوهرى الاساسي الذي انما خلق الفن والأدب للتعبير عنه ، وهو  
المعنى . وما كل هذا غير طراز من الالحاد الاجتماعى .

بديهى ان فكرة وجود خالق للكون مبدع لكل شيء لم ينتظر الخيام  
حتى يشيخ ليتعلمها، فهي في الواقع أول شيء من الاسلام تعلمه الصبي ،  
عمر ، في دروس علم الكلام ( الالهيات ) يوم قالوا له : كل متغير حادث ،  
وكل حادث له محدث . والعالم متغير، فهو اذن حادث، فلا بد ان يكون له  
محدث، اي صانع او خالق هو الله سبحانه . فكان يحفظ ذلك صبيا، ويتفهمه  
ويعيده على ممتحنه مثلما يحفظ ( قفا نيك ) ويتفهمها ويعيدها . غير انه  
حين شب ونما جسمه واضطربت فتوته في مرحلة التمرد والتحدي، بدأ يقول  
( لماذا ) ؟ ولا بد انه كان يسمع اقاويل الملحدين المنكرين ايضا ، فكان يقارن  
ويوازن . وحين لابس الحياة وأحتك بتفاعلاتها، لعلهُ عانى واقعيا فوضى  
الأمور واختلال معايير العدالة، بل فقدانها في الكثير من الاحوال ؛ وربما  
أصابه الكثير من عقابيل ذلك ، ولعله قاسى أيضا من تحيز القدر في معاملة  
الناس شيئا غير قليل — علاوة على لا منطقية الموت ومجهولية المبتدأ

والمنتهى ، لا بد انه حين واجه كل اولئك صار رنين ( لماذا ) يدوي بقوة في رأسه — استفهاميا حيناً ، واحتجاجياً حيناً ، واستنكارياً حيناً آخر .

ولا بد كذلك ان الخيام قد درس منذ الصبا ايضا اجوبة الدين على اسئلته واعتراضاته ، فقليل له ان ( الآخرة ) تصحح اغلاط الدنيا . فـ « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ؛ فكما يثاب الأخبار على صالح أعمالهم وعلى ما يبطلون به من مصائب الحياة ، يعاقب الاشرار على شرورهم، ويحصى ما يتمتعون به في الدنيا من نعم الحياة فيحسب على سيئاتهم . . . والظالم يؤخذ من حسناته يوم القيامة لتضاف الى حسنات المظلوم، فان لم تكن له حسنات أضيف الى سيئاته من سيئات المظلوم . . . « يقضى بينهم بالحق ، وهم لا يظلمون » .

لكن هذا الذي تعلمه في الصغر تبخر تأثيره والاعتناع به مع الزمن في دورة الشباب . كل الملحددين يعرفون موقف الدين هذا ، لكنهم يزيغون عنه ويذهب بهم الفكر و ( اللماذات ) مذهب الحيرة فالنكران .

على أن تقدم السن يخفف من فورة التمرد والتحدي ايضا . وكثيرا ما يؤمن الشيوخ بعد كفران . والتأويل الرائج لهذه الظاهرة هو ان المرء حين يستنفذ عمره، وتخبو حدة شهواته، ويقترب منه قبره، يستغفر ربه خوفا من ويلات الآخرة وطمعا في نعيمها، فيتوب عن معاصيه ، وكثيرا ما يعكف على العبادة واداء الفرائض من حج وصوم وصلاة وزكاة ؛ ومنهم من يتصدق بما حشد من مال حرام ، وبعضهم يبني المساجد ، او يوقف املاكه على وجوه البر .

لكني لا اخال هذا منطبقا على مثل شيخنا الخيام ، بل على مثل ابي نواس الذي كان يقول في شبابه :

تم سيدي نعص جبار السماوات

فهو كان يؤمن بأن في السماوات جبارا، لكنه يعصيه تمردا وسفاهة حتى بعد أن حج البيت وقاتل في بعض قريضة ما ينم عن إيمانه . وذلك شأن معظم العصاة من الناس . يؤمنون بالله القاهر نوق عباده، ولا يمنهم إيمانهم من اتیان المعاصي، من غش وابتزاز وعدوان ونسوق، وما الى ذلك من صفائر الذنوب وكبائرها . . كالولد الشقي المتمرد، يرتكب كل ما تسول له نفسه ضد أوامر أبيه ومعلميه على الرغم من علمه — يقينا — بما سينال من عقاب وضرب وجيع .

فاذا ادبر الشباب وحلّ المشيب ببعض المارقين عن الدين تابوا .

قال أبو نواس فيما قال :

وبلغت ما بلغ امرؤ بشيبه فاذا عصارة كل ذاك انام !

يتوب من آثامه لا من الحاده . انه لم يخرج على الدين عن فلسفة ، ولا هو تاب عن تفكير . لان التوبة خامرتة فيما يظهر عند اعتلال جسده، ربما بسبب الاسراف على نفسه في الخمر والفجور . ويغلب على ظنسي انه لو عاوده عنفوان الشباب واقبال الحياة لتاب عن توبته .

الخيام طراز آخر ه كان كقره بالدين والحاده بالله عقليا ، اي علميا، لا جهليا او عصبانيا ؛ فلما عاد الى الايمان عاد عن تفكير وتأمل . فلهذا لم يستغفر في دعائه الاخر عن ذنوبه ومعاصيه ، بل عن عدم تمكنه من معرفة الله .

بعد أن شبع وسئم في مدارج العمر من كثرة تساؤل وطول احتجاج واعتراض ، اخذت ( لماذا ) تضعف وتتلاشى مع الزمن وبالتدريج . . لتظهر مقابلها في نفس الوقت ، مع الزمن وبالتدريج : ( كيف ) ؟ . . ولا سيما أن شعلة التمرد والتحدي خمدت مع تدرج خمود الفتوة ونضج الكهولة ،

فأصبحت نظرتة الى الامور وتأملاته في شؤون العالم تتسم بشيء من الحياد .. الايجابي .

اذا كانت تأملات أبي نواس قد قادته الى القول :

وفي كل شيء له آية                      تدل على انه واحد

فلا بد أن هذه الحقيقة قد كانت أجلى لعين الخيام وهو أوسع علما وأعمق فكرا ، وأكثر اهتماما بتقصي الحقائق والتفتيش عن المجهولات واسرار الحياة والكون . لا بد انه تسائل :

( كيف ) نبتت هذه الشجرة الوارفة من تلك البذرة الصغيرة ؟ كل أوراق هذه الدوحة الضخمة وخضرتها وخشبها واللوان نورها ونوع ثمرتها وطعمها .. كل هذا كان مسجلا بطريقة خفية ودقة غير معقولة في تلك البذرة الصغيرة .

( كيف ) تكونت هذه الحيوانات في أرحام أمهاتها ، من لا شيء تقريبا ، من ماء دافق لا يبين فيه اثر لحياة .. ثم أخذ كل منها منذ ولادته يتصرف على نحو خاص بأبناء نوعه دون تعليم ، بالفطرة ؟

( كيف ) تكونت هذه الفطرة ؟

والانسان .. ( كيف ) سطرت كل خصائص شخصيته بالتفصيل المسهب ، المتقن ، في تلك النطفة الضئيلة ؟ كل البرنامج : الطول والحجم ولون البشرة وعدد الشعرات في الجسم في كل مرحلة من مراحل الحياة .. والاحاسيس ، والمشاعر ، والهواجس ، والأفكار ؛ وكيف يواجه جسمه ونفسه وعقله كل أنواع الاحتمالات التي تصادفه في الحياة ، وكل الاستجابات والتفاعلات وتعاملات البيئة ؟ .. والخيام طبيب ..

وهذا الكون ( كيف ) تهندس بنجومه الثابتة على مسانن محددة ..

-والخيام فلكي - وبكواكبه السيارة المتحركة بحسابات مضبوطة ؟ ..  
-والخيام رياضي - هذا الكون ( كيف ) نشأ و ( كيف ) يعمل ؟ ( ولو أنه لم  
يكن معروفا يومئذ ان الفلك يتحرك كله ويسير ) .

وهذه الفصول السنوية ( كيف ) تتغير وتتعاقب بانتظام، فلا يتقدم  
دوران السنة دقيقة واحدة ولا يتأخر ؟ .. والخيام قد شارك في وضوح  
التقويم السنوي الذي يبدأ في لحظة تعادل الليل والنهار الربيعي .. وهو  
فوق ذلك خبير بعلم الاجواء والانواء ..

بعض هذه الاسئلة يظهر في رباعياته ، لكني لا اشك انها كلها -  
واكثر منها - قد كانت موضوع اهتمامه وتأملاته .

كيف وكيف وكيف ؟ ...

كل شيء يدعو الى العجب ، بل الدهشة .  
وكلما كان العقل اكبر كان تعجبه ودهشته اكبر .

هذا الكون المذهل بكل هذه العظمة وهذه الدقة، من أعظم شيء الى  
اصغر ذرة، فيه لا يمكن ان يكون قد تكوّن مصادفة . وهذه الدقة المتناهية  
المحكمة الى حد لا يدركه الفكر، يستحيل ان تكون هي التي خلقت نفسها .

قال لي في اذن قلبي الفلك الدوار همسا :  
لأرحمت الآن نفسي من هيامي ودواري !  
انا لو كان بأمري دورانسي في مداري  
أتظن الحكم حكمي في السورى سعدا ونحسا ؟

كلا ، ان الفلك لم يبدع نفسه ، ولا هو يدور باختياره ، ولا بوعي  
منه ؛ انه كالنور يدور في الناعورة لا يدري من اجل ماذا .

لسنا نعلم في اية مرحلة من حياته قال هذه الرباعية ، وهي رباعية

خيامية الدلالة، حتى ان لم يكن الخيام قائلها فعلا .

( كيف ) اذن نشأ الفلك ، و ( كيف ) دار ؟

انه بحر وجود جاء من طي الخفاء  
درة للبحث لم تُثَقَّب بعلم او ذكاء  
كلهم جاء بقول من تظنُّ وهراء  
غير ان الحق لم يظهر عليه ابن فناء

( لا أدريه ) صريحة ؟ وهي من الرباعيات ( المعتمدة ) التي يرجح  
ترجيحا قويا صحة نسبتها الى الخيام . وثمة امثال لهذه اللادريية في  
رباعيات اخريات . ثم :

يا فتى من صولج التقدير كالأكرة يجري (٨)  
سرَّ شمالا ويمينا ، ثم لا تنطق بأمرٍ  
ان من القاك في المحنة من كُـرِّ وفـرِّ  
هو بدري، وهو بدري، وهو بدري، وهو بدري

( لا أدريه ) اخرى ، لكن من نوع آخر . فالخيام نفسه ما يزال ( لا  
يدري ) غير أنه قد توصل هنا الى معرفة ( هو ) الذي وحده بدري .. اي  
انه اعترف بوجود ( هو ) الذي « القاك في المحنة » ..

كان إلحاده رياضيا ، فلا بد ان ايمانه أيضا قد كان رياضيا .. فلا يفلُّ  
الحديد الا الحديد .

فاذا وضعنا المسألة في صيغتها الرياضية كانت كما اظن هكذا :

---

٨ - الصولج هو الصولجان ( اللسان ) . يقصد لعبة الكرة والصولجان ، المشهورة نسبي

عمرنا باسم ( الهوكي ) .

( لماذا ) ، جوابها : لا أدري ، أي صفر . جواب سالب .

( كيف ) ، جوابها : هو يدري . جواب موجب ، على كل حال .

وطبيعي أن يتخلى عقل علمي كمقل الخيام عن السالب من أجل الموجب ! بعد أن اقتنع عقله باستحالة وجود هذا الكون من دون موجد ، خالق ، صار إذا عاوده التسأل : لماذا هذه المفارقات في الحياة ؟ لماذا الشرور ؟ لماذا الحياة ؟ .. لماذا الموت ؟ .. لماذا ، لماذا ؟ ..

كان الجواب : هو يدري ! .. نفس الجواب الذي تعلمه الصبي عمر ابن ابرهيم الخيام من معلميه وأهله : انها حكمة الله .. قضاء الله .. ارادة الله .. يُعزّ من يشاء ويُذلّ من يشاء ..

ولماذا كانت حكمة الله ومشيبته هكذا ؟ .. هو يدري ، هو يدري .. « لا يُسأل عما يفعل ، وهم يُسألون » .

عندها لا بد أن الخيام عاد الى اجوبة الدين القائمة على تعادلية اليوم الآخر . وصار يتأمل تلك الاجوبة على ( لماذاته ) بعين جديدة، ويهضمها عقله بالتدرّج — بعد أن كان يحفظها ويعيدها ويتبحر في فلسفتها تحليلا وتعليلا في محاضراته ورسائله . كان يلقيها دروسا على الناس، ويجهد في افهامهم اياها بالادلة المتداولة بين العلماء والحكماء دون أن يقتنع هو بها أو يفهمها .. كما يفعل الكثيرون من المعلمين في كل زمان حين يضطرون الى تلقين تلاميذهم مبادئ دينية أو سياسية لا يؤمنون بها . لكن الخيام بعد أن آمن بالذي ( يدري ) صار يلقيها دروسا على نفسه ويجهد في افهامها اياها بالادلة التي تقنعه هو، واصبح شعوره بضرورة وجود ( الواجب الوجود ) يساعده ويجبر عقله على الاقتناع .

وما في الأمر غرابة ؛ فلغزالي الفقيه المتصوف الكبير أيضا تاب الى

الإيمان بعد طول حيرة وتشكك . وللغزالي والخيام نظراء .

سؤال : ( كيف ) هو الله ؟ ..

أما هذا فلم يجب عليه العقل ولا الدين : الدين يقول : شيء لا  
كالأشياء .. بكل شيء محيط .. يدرك الإبصار ولا تدركه الإبصار ..  
والإمام علي يقول : « كل ما خطر ببالك فهو ليس كذلك » !

والواقع أن كل تفكير في حقيقة الله وصفاته لا نتيجة له غير الحيرة  
والضلالة : وهنا يأتي الحديث النبوي المنقذ : « تفكروا في خلق الله ولا  
تفكروا في الله ، فتهلكوا » (٩) .

وينتهي التأمل الرياضي بالخيام ذي العقل الرياضي الكبير الى هذه  
النتيجة :

ان عقلي ليس بالكفاء لاثباتك ، ربي  
فمناجاتك اوضحت هي تفكيري ودأبي  
كيف لي رياه ان اعرف ما كنه صفاتك ؟  
ليس من يعرف ما ذاتك حقا غير ذاتك !  
وما اشد انسجام رباعيته المنظومة هذه مع دعائه المنثور ذاك .

وان كانت للخيام عمر رباعيات دينية أخرى، فالمعقول ان تكون من  
نتاج فترة الرجوع الى الإيمان والتدين . ولعل رباعيتنا هذه أهم واحدة

---

٩ - لقد ذكر الرسول ذلك على أصحابه في مناسبات متعددة فيما يظهر، لان الحديث روي من

جهات مختلفة بصيغ متقاربة ، كلها تؤكد النهي عن التفكير في ذات الله ويحث على التفكير

في مخلوقاته .

فيها .

ولا نعلم متى قالها عمر ، لكن الشهرزوري يروي أنها آخر ما قال

من الشعر .

وأما الرباعية الرائجة التي كثيرا ما يستشهدون بها على ايمان

الخيام :

ان كنت لم اثقب درة طاعتك قط ،

ولم انفض غبار الذنب عن وجهي قط ،

فلست باليائس من رواق كرمك ،

لاني لم اقل ان الواحد اثنان قط ..

لما احسبنا من صناعة عقل الخيام ، لضعفها ، وخاصة لتهاونت  
الاستعارة البلاغية في الشطر الاول منها — فمن أسلوب الخيام ان يقول  
أحيانا ( ثقبوا د. المعاني ) بمعنى افتضوها ونفذوا الى صميمها ، أما  
( ثقب درة الطاعة ) بمعنى الاتصاع اليها والتمسك بها فاستعارة سقيمة  
لا اراها شبيهة بشاعرنا المنطيق عمر .

لا استبعد ان يكون ايمانه هذا الذي ملك عليه مشاعره في شيخوخته،  
او منذ كهولته ، قد دعاه الى اتلاف رباعياته الفارسية وشعره العربي،  
مما لم يرد به وجه الله او اراد به الالحاد والثورة على الدين ، كما يفعل  
امثال له من التائبين — فلم يخلف من جراء ذلك ديوان شعر ولا مجموعة  
رباعيات ، الا ما بقي في ذاكرات اصحابه الذين كانوا اخذوها عنه او في  
دفاترهم ، او اخذها بعضهم عن بعض ، مما شاع شيء في حياته نقلا  
عنهم، وصارت شذرات منه تظهر بعد وفاته في المؤلفات اللاحقة ، حينما  
بعد حين .

ولنعد الآن الى ذلك الدعاء الذي ودع به الفاتية . صيغته لا تخلو من غرابة ، وهي تناسب الخيام كما نعرفه كل المناسبة . ونص الدعاء كالذي رأينا هو : « اللهم انك تعلم اني عرفتك على مبلغ امكاني ، فاغفر لي . فان معرفتي اياك وسيلتي اليك » .

فاذا كانت معرفته البارئ هي وسيلته اليه فلماذا يستغفره ؟ السر فيما ارى ان « المعرفة » في الشق الاول من هذا الدعاء تختلف عن « المعرفة » في الشق الثاني منه . وبعبارة اوضح، يخيل لي انه قصد بالمعرفة الاولى عكس معناها، اي الإنكار ! .. فكأنه قال « اغفر لي عدم معرفتي اياك فبما خلا من أعوام عمري » . وهو يتنصل ضمنا من التبعة، ويلقبها على عجزه عن الادراك . وقوله « على مبلغ امكاني » يؤيد هذا التفسير . ثم جاءت المعرفة الحق في الشق الثاني من قائلته ، وهي التي يتخذها وسيلته الى الله لغفران الماضي وثواب الحاضر ، بل المستقبل .

كان الحاده عقليا ، وجاء ايمانه عقليا ولا بد .

**عبد الحق فاضل**

